مجلة دراسات تاريخية المجلد :06 العدد : 01 السنة : 2019 رقم 9741-2352

القيم الإنسانية في مواثيق الثورة التحريرية 1954-1962

-قراءة في التنظير والممارسة الثورية من خلال بيان الفاتح نوفمبر 1954-

طالب دكتوراه - محمدي محمد
جامعة محمد بوضياف المسيلة

تاريخ الارسال : 2017-12-22	تاريخ القبول : 2019-06-13	تاريخ النشر : 2019-11-27

الكلمات المفتاحية: البعد، الإنساني، المواثيق، الثورة التحريرية، بيان أول نوفمبر.

ملخص المقال:

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في جوانب الفكر الفلسفي للحدث التاريخي، من خلال إبراز القيم والأبعاد الإنسانية التي حملها تاريخ البشرية عبر العصور والأزمنة التاريخية المتعاقبة، ولعل من أهم هذه الفترات المفصلية والتي شكلت إمتحانا حقيقيا للكائن البشري عامة ، وذلك من أجل إثبات إنسانيته التي كرمه الله تعالى بها وفضله بها على سائر المخلوقات الأخرى، تلك إذا هي فترات الحروب والنزاعات المسلحة التي مثلت المحك الحقيقي للإنسان وبينت مدى تمسكه بمبادئ الإنسانية الحقة.

وهذا ما تم إسقاطه على واقع ويوميات الثورة التحريرية الجزائرية (1954-1962) في نضالها التحرري الهادف الى تحقيق الإستقلال والحرية من براثن وربقة الإستدمار الفرنسي، والتي أكدت من خلال ممارساتها أن هذه الثورة تعتبر رمزا ومثالا حقاً للإنسانية، وذلك رغم ظرفية الحرب والعداء العسكري المتأجج بين طرفي النزاع، إلا أنها الثورة الجزائرية ظلت وفية سائرة على درب الإلتزام الأخلاقي و نهج الإحترام الكامل للقوانين الدولية والأعراف الإنسانية، حفاظا على النفس البشرية وتحديدا لفاتورة ضحايا الإنسانية، وذلك ما عُبّر عنه بجلاء في بيانها التأسيسي الأول من خلال الإظهار والإضمار لقيم العدل والتسامح والحرية والمساواة وغيرها... .

كما تهدف الدراسة الى ترصد المبادئ التي وردت ضمن بيان الثورة التحريرية، وتم تجسيدها في يوميات هذه الثورة واقعا معاشا في ممارساتها الميدانية، لتمكن هذه الأخيرة وتؤهلها لتكون أهم و أكبر ثورة إنسانية عرفها تاريخ البشرية طيلة عقود الزمن الطويلة التي شهدتها الجموع البشرية، كما جعلت منها أيضا توسم بوسم" **الثورة القدوة** "، وذلك بحكم تملكها في ظرف قياسي لمجمل الرأي العام العالمي والدولي، وذاك ما جعل صداها يبلغ حدودا غير معهودة في قارات العالم المختلفة، فضلا عن كونها دليلا ونهجا سارت على خطاه أغلب الحركات التحررية التواقة لنيل كرامتها وحريتها المسلوبة.

مقدمة:

عُد بيان الفاتح نوفمبر أول وأهم وثيقة منظرة لفكر الثورة التحريرية الجزائرية، وذلك بإعتباره أول الأدبيات التي أعطت هذه الثورة نهجها الإيديولوجي الخالص، هذا الذي حمل في طياته وبين أفكاره العديد من المبادىء والقيم، التي عبرت بوضوح عن البعد الحضاري الديني والإنساني للدولة الجزائرية عبر فتراتها التاريخية المتعاقبة كما أعطاها ملامح الدولة المستقبلية أيضا، ومن بين القيم العديدة التي وردت ضمن هذا البيان المرجعي والدستور الأول للدولة الجزائرية الحديثة والمعاصرة، تلك المبادئ والقيم الإنسانية التي عبرت بجلاء ووضوح تأمين عن التوجه الإنساني للثورة الجزائرية، وفي ذلك الرد الكافي أيضا على الدعاية الإستعمارية التي صورت الثورة في صورة الإرهاب الهمجي و التطرف الأعمى، الذي يقاد من طرف ثلة من اللصوص والمشبوهين من الداخل، مع إحتمال شبهة تورط أطراف خارجية في ما يحدث في" **مقاطعة الجزائر**" حسب المنظور الفرنسي، كما نجد أن الثورة التحريرية قد أثبتت بالدليل القاطع والحجة الدامغة للعالم أجمع مدى عدالتها وإنسانيتها، هذا ما جعل أحرار العالم وديمقراطييه وإنسانييه، يقتنعون طواعية بإنسانية هذه الثورة ووجوب نصرتها وتأييدها، ومن هذا المنطلق فقد صدح بيان الفاتح نوفمبربالیقين مكرسا أبعادا إنسانية لتكون نهجا للثورة الجزائرية، وهي التي جعلت من هذه الأخيرة قدوة ونبراسا لجميع الحركات التحررية في مختلف أصقاع العالم خلال النصف الثاني من القرن العشرين.

وانطلاقا من هذا الواقع جاءت هذه الدراسة لترصد لنا مكامن ومواضع القيم الإنسانية الواردة في بيان الثورة ودستورها الأساس؟ وما مدى توافقها مع مبادئ الدين الإسلامي السمحة والقوانين الدولية و الإنسانية الداعية الى أنسنة النزاعات الحربية المسلحة؟

وكنتيجة للواقع الإستعماري الذي فرضته نمطية الإحتلال اللاإنسانية، فقد تقرر تفجير الثورة التحريرية الجزائرية بعد نضال سلمي طويل من الكفاح و العمل السياسين، ومرد ذلك هو تعنت السلطات الفرنسية التي رفضت تمام الرفض كل مطالب سلمية لحل مشكلة الجزائر، حيث نجدها تنتهج سياسة التماطل والتسويف، وتأبى في كل مرة أن تمنح ولو جزءا بسيطا من أي حرية ممكنة للجزائريين، مكرسة بذلك سياسة النفاق الإستعماري والوعود الكاذبة للتملص من كل مطلب شرعي لأصحاب الأرض، بل على العكس من ذلك تماما فإننا نجدها في كل مرة تزيد من حدة عنفها وعنجهيتها أمام كل مطالبة سلمية للجزائريين بحقوقهم الشرعية، كما مورست التجاوزات اللاإنسانية تجاه السكان الأصليين، والتي كانت بحق هدرا مقننا لحقوق الجزائريين والجزائريات.

وفي ظل هذه السلسلة الإجرامية الممارسة ضد الجزائريين، أبت الثورة الجزائرية إلا أن تكون إنسانية في أدبياتها المنظرة لفكرها ومنهجها، وكذلك في ممارساتها أيضا مع قوى الإستعمار وملحقاته عسكرية أو مدنية كانت، وعليه فإن الكفاح المسلح ضد آلة الدمار الفرنسية، لم يتعدى مكانة الوسيلة من وجهة نظر الثوريين

والنوفمبريين، وذلك بهدف تحقيق غاية الإستقلال والحرية المسلوبة قهرا وعدوانا من طرف الغزاة المعتدين، وكذلك بالسعي الى تكريس القيم الإنسانية كنبراس ووسم للثورة التحريرية الجزائرية، والعمل الدؤوب على تجسيدها في واقع الجزائريين ويومياتهم بعدما غيبها الإستعمار فترة طويلة من الزمن، ومن بين قيم الإنسانية المعبر عنها في بيان الثورة التحريرية نجد:

1-قيمة الحرية:

تعتبر قيمة الحرية أسمى القيم الإنسانية التي يسعى الإنسان إلى تحقيقها في حياته، وأول مطلب للتجسيد في مختلف حركاته وسكناته، ومنه فقد كانت الحرية أول مبتغى يرجى توفره لدى الإنسان السوي بعد حق الحياة الذي يعتبر جوهر الحقوق الإنسانية كلها، وبناء على ذلك فقد جاءت الثورة التحريرية مستهدفة تحقيق مطلب الحرية وفق ما ورد في بيان الثورة التحريرية: « **إن حركتنا موجهة فقط ضد الإستعمار وحده، الذي هو العدو الوحيد الأعمى، الذي رفض أمام وسائل الكفاح السلمية أن يمنح أدنى حرية**».(1)

وذلك لأن مطلب الحرية يعتبر الأصل الذي يحوي جميع الفروع الأخرى من القيم الفرعية للحرية الإنسانية، والتي لا يتأتي لها التجسيد على أرض الواقع دون شرط الحرية، وحول قيمة الحرية قد قال" **عمر بن الخطاب رضي الله عنه**" قولته المشهورة: « **متى إستعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا**»، إنها الحرية التي قاوم وناضل الجزائريون من أجل تحقيقها فوق الأرض الجزائرية التي إغتصبها الإستعمار الفرنسي المدعوم من قبل كبرى الدول الأوربية والمسيحية، هذه الأخيرة التي سعت الى تخليص الصليب من الخطر الموهوم للنجمة والهلال الذي بات يتهدد جموع المسيحين ومصالحهم الإقتصادية في حوض البحر الأبيض المتوسط، إذ نجد أن نوايا الفرنسيين كانت واضحة منذ البداية، وهذا بناء على تصريحات الملك الفرنسي "**شارل العاشر**" شهر مارس 1830، موضحا نواياه العقائدية المسيحية في هذه الحملة، والتي كانت تحمل في طياتها كل مشاعر الكره والحقد تجاه الإسلام والمسلمين قائلا: «**إن التعويض الحاسم الذي أريد الحصول عليه، وأنا أثأر لشرف فرنسا أن يتحول بمعونة الله لصالح المسيحي**».(2)

وبناء على هذه الخلفية، فإن مطلب الحرية عند الجزائريين لا يعد مطلبا فلسفيا ولا بعدا ميتافيزيغيا، وإنما جاء هدفا واضحا جليا يتمثل في تخليص الجزائريين وطنا وشعبا من براثن الإستعمار وقيود قوانينه الجائرة، التي سلطت على رقاب الجزائريين من أجل الحد من حريتهم وإنسانيتهم، وإجبارهم على الخنوع و الخضوع لمنطق القوة المفروض عليهم من قبل الفرنسيين وأتباعهم من المتواطئين، وبذلك نجد أن الإستعمار قد داس في الجزائر على كل معالم الحرية وقيم الإنسانية لدى الجزائريين.(3)

ولأجل تحقيق مبتغى الحرية لدى الجزائريين، فقد بذل هذا الشعب الغالي والنفيس من أجل إسترداد ما ضاع من حقوقه المادية والمعنوية، غير أننا نجده ورغم معاناته اللاإنسانية جراء القمع الإستعماري الممارس ضده من

طرف القوات الفرنسية، إلا أن ثورة الجزائريين لم تكن لا حربا دينية ولا حركة عنصرية، بل هي مطلب شرعي إستهدف تحقيق الحرية لشعب طالما عبر عن حقه المشروع فيها وبطرق سلمية، وهذا ما لم تحمله الثورة التحريرية التي دعت الى طرق كل أبواب السلم، وولوج مجمل طرائق الحلول و الحوار السلمية الممكنة، وفي ذلك يقول "**محمد العربي ولد خليفة** "أن الثورة الجزائرية كانت من طراز خاص قائلا: « **إن الثورة الجزائرية لم تكن حربا بين الطوائف والأديان والمذاهب (إسلام، مسيحية، مالكية، حنفية، إباضية) ولا بين الأعراض، ولا بين الطبقات الإجتماعية، ولا بين الإيديولوجيات المعلبة والجاهزة للتصدير مثل الماركسيات بكل ألوانها، والإشتراكيات المتعددة، والديمقراطيات المسيحية أو اللائكية**»، (4) ليضيف الكاتب حول خصوصية الثورة التحريرية وعلامتها المسجلة بإسمها قائلا: « **إنها تجربة تاريخية لشعب عبر من خلالها عن تراثه النضالي والثقافي العريق**»(**5**)، دون اللجوء الى العنف الذي لن يزيد القضية الإ فاتورة أكبر في عدد الضحايا من الطرفين، ولأجل تحقيق هذا المطلب عملت جبهة التحرير الوطني الجناح السياسي للثورة، بتقديم عروض حوار للسلطات الفرنسية في حال وجود النية الغير مبنية على المراوغة والحيلة، وذلك بالقول: «**وتحاشيا للتأويلات الخاطئة وللتدليل على رغبتنا الحقيقية في السلم، وتحاشيا للخسائر البشرية وإراقة الدماء، فقد أعددنا للسلطات الفرنسية مشرفة للمناقشة، إذا كانت هذه السلطات الفرنسية تحذوها النية الطيبة للحوار السلمي**»(**6**).

وبهدف التدليل على الرغبة الصادقة لجبهة التحرير الوطني، في تحقيق السلم على أرض الواقع وعلى المستوى الميداني قامت هذه الأخيرة ، بدعوة صريحة للطرف الفرنسي الى الجلوس الى طاولة المفاوضات، لايجاد مخرج سلمي للمأزق القائم وفقا لما تمليه القوانين الدولية والشرعة الإنسانية، وعلى أسس الإعتراف بالسيادة التامة للدولة الجزائرية ووحدتها الترابية كاملة غير منقوصة(7).

2-قيمة السلم:

يعتبر السلم من بين أسمى الغايات التي خلق الله تعالى عليها الناس جميعا، فمنة السلم أساس العمران البشري على هذه الأرض، ورابطة علاقاتها بين بني البشر جميعا، وما جعلت الحرب إلا لحالات الإستثناء والضرورة، كما أننا نجد أن مطلب السلم مرغب ومحبذ فيه حتي أثناء النزاعات العسكرية، وهذا ما برهنت عنه الشريعة الإسلامية السمحة في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله**﴾(**8**).

وانطلاقا من ترجيح مبدأ السلم في الإسلام، قامت الثورة الجزائرية مكرسة مبدأ السلم والإنسانية في بيان الثورة، وفي ذلك برهان قاطع على الإستنباط الواضح للمعالم والأطر العامة و الرئيسية لهذه الثورة من آيات القرآن وأحكام الشريعة، وهذا ما يفسر ترجيح الثورة الجزائرية خيار الحل السلمي على الحل العسكري في بيانها المرجعي بالقول:« **وتحاشيا للتأويلات الخاطئة، وللتدليل**

على رغبتنا الحقيقية في السلم»(**9**)، وفي ذلك رغبة واضحة من منظري الثورة للحد من الخسائر البشرية في هذا النزاع القائم، غير أن هذه الدعوة للسلم كانت واضحة ومرفقة بشروط ملازمة له، وهي:

- ✓الإعتراف الرسمي بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية وواضحة، وفي ذلك إلغاء لكل القرارات والتصريحات التي جعلت من الجزائر أرضا تابعة لفرنسا.
- ✓فتح مفاوضات جدية مع الممثلين المفوضين من طرف الشعب الجزائري، وذلك على أساس الإعتراف بالسيادة الجزائرية ووحدتها الترابية وحدة لا تتجزأ.
- ✓خلق جو من الثقة من خلال إطلاق سراح جميع الأسرى والمعتقلين السياسيين، ورفع كل الإجراءات المطبقة ضدهم، وإيقاف كل المطاردات والملاحقات ضد القوات المكافحة(10).

وهذا ما وصفه المحللون والمتتبعون "**باليد البيضاء**" التي أمدتها جبهة التحرير الوطني للسلطات الفرنسية(في حالة صدق النوايا) من أجل البحث في سبل إيجاد مخرج سلمي للقضية والخروج بها من النفق المظلم، الذي لم يجني على القضية سوى خسائر أكبر في عدد الضحايا والخسائر المتوقعة الحدوث(11). وبذلك فإن دعوة اللجوء الى المفاوضات كانت عبارة عن مبدئ إسلامي كرسته الثورة، من خلال تغليب ملكة العقل وترجيح بدائل المخارج السلمية لهذه القضية، وفقا لما تمليه القوانين والأطر الدولية القانونية والإنسانية، وفي ذلك دليل على الدرجة الانسانية الراقية التي بلغتها جبهة التحرير الوطني في حوارها الانساني مع الآخر ، خاصة لما يكون الإستعمار الفرنسي هو المعني بهذا الحوار(12).

ولعل هذا ما أثبت للعالم أجمع نزوع الفرد الجزائري للسلم كفطرة مترسخة في الوجدان الإنساني للجزائري الذين يدين بدين الإسلام منذ قرون طويلة(13) ، غير أنه في الوقت نفسه يرفض الظلم ويسعى الى الظفر بمطلب الحرية مهما كان الوصول اليه معقد المنال، ومن هذا المنطلق فلا غرابة أن نلحظ نزوع القادة الثوريين من المحررين للبيان الثوري والقائمين على العمل الثوري، يلجؤون الى ترجيح كفة الحل السلمي وتجنب فاتورة أبهض في الخسائر البشرية من طرفي النزاع على حد سواء، وذلك في حالة توفر الرغبة الطيبة والنية الإيجابية من السلطات الفرنسية.

وهذا ما نبهت اليه جبهة التحرير الوطني مرارا وتكرارا، وركزت عنه في هذا النداء محذرة من النوايا المضمرة والغير صادقة التي يمكن أن تبديها السلطات الفرنسية للقادة الثوريين وهذا ما يرهن مصير المشروع السلمي المعلن عنه في البيان قائلا: «**ذلك إذا كانت هذه السلطات، تحذوها النية الطيبة، وتعترف نهائيا للشعوب التي تستعمرها بحقها في تقرير مصيرها بنفسها**»(**13**).

3- قيمة الحرية في المعتقد:

قامت الثورة الجزائرية مكرسة مفاهيم الإسلامي السمحة وأسسه المرجعية المستمدة من مصادرة الأصيلة قرآنا وسنة، وبذلك فقد جاء بيان هذه الثورة ناطقا بأحكام الدين على لسان بيان ثوري حكيم ومتزن بين الحقوق والواجبات لما له وما عليه، وذلك على كافة

المناحي والجبهات، خاصة فيما يتعلق بعلاقته بالأقليات الدينية المستقرة في الجزائر، سواء تلك التي تعتبر من ملحقات الحملة الإستعمارية، أو تلك التي سبقت التواجد الإستعماري في الجزائر وفي ذلك إشارة واضحة، الى الفئة المعتبرة من اليهود والمسيحين التي وفدت مع حملات اللجوء الموريسكية التي اختارت سواحل الشمال الإفريقي بعد حملات "**الحرب الإستردادية**" التي شنت ضد المسلمين بعد سقوط آخر معقل للمسلمين بالأندلس سنة (897هـ- 1492م)، وذلك بعد التحالف المسيحي المشهور بين الكاردينال فرانسيسكو خمينيث دي سيسينيروس والملكة إيزابيلا الكاثوليكية(14).

إذ نجد أن بيان الثورة التحريرية جاء مستهدفا تكريس هذا المبدأ بالقول بوجوب: «**إحترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني**»(**15**)، وفي ذلك وعد من القادة الثوريين الجزائريين للأقليات الدينية في الجزائر، بالحرية المكفولة لهم لممارسة شعائرهم الدينية في الدولة الجزائرية المأمولة، وهذا ما لا يتقاطع ومبادئ الشريعة الإسلامية التي لم تنكر للأقليات الدينية حقها في العيش بسلام في كنف الدولة الإسلامية(16)، وذلك ما ورد بنص القرآن في قوله تعالى: ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**﴾(17).

وقد ورد في نفس السياق قوله تعالى أيضا: ﴿**ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا، أفأنت تكره الناس حتي يكونوا مؤمنين**﴾(18)، إذ أن الثورة قد عملت على إيضاح الرؤى وكشف الإلتباس والغموض المصاحب لاندلاع شرارة العمل التحرري على أرض الجزائر، فحددت بذلك طبيعة الدولة المستقبلية مقترنة بالسياسة المنتهجة نحو الأقليات في المجتمع الجزائري بالقول: « **أن الهدف من هذه الحركة الثورية هو إعادة بناء الدولة الجزائرية الديمقراطية، ذات السيادة ضمن إطار المبادئ الإسلامية، واحترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني**»(**19**)، وذلك مع العلم أن غالبية الشعب الجزائري وسواده الأعظم يدين بدين الإسلام(20).

كما نجد أن البيان قد وضح بجلاء الهدف من هذا العمل الثوري، دونما تأويل ولا إخفاء لأغراض سياسية أودبلوماسية، وذلك حينما صرح أن هذه الثورة ستكون ضد القوة الإستعمارية وحدها ودون غيرها قائلا: «**إن حركتنا موجهة فقط ضد الإستعمار الذي هو العدو الوحيد الأعمى، الذي رفض أمام وسائل الكفاح السلمية أن يمنح أدنى حرية**»(**21**)، وهذا ما يثبت دونما شك بطلان الدعاية الإستعمارية التي روجت العمل الثوري في صورة الإرهاب الديني الذي يتهدد غير المسلمين على أرض الجزائر، مثيرين لإشاعة "الحرب الدينية" التي تشن من طرف المسلمين للقضاء على التواجد غير الإسلامي في الجزائر(22).

غير أن بيان الثورة جاء ليثبت العكس، وليؤكد في الوقت نفسه أن هذه الثورة قامت لتقضي على المخلفات الإستعمارية القائمة بالأساس على سياسة الميز العنصري، الذي طال الجزائريين واعتبرهم بشرا من الدرجة الثانية أو

الدنيا بعد أن كانوا أصحاب الأرض وملاكها، أين باتت تطلق عليهم نعوت وأوصاف تحط من الكرامة الإنسانية وتدوس الشرف البشري على غرار: **"البيكو"**، **"الأنديجان"**، **"الصال أراب"**، **"الموكيرا"** ...(23)، وهي الألقاب التي لا تمت للإنسانية بصلة ، كما أنها تنم عن نزعة عنصرية تمييزية بغيضة تجاه الجزائريين خاصة والمسلمين عامة، وفي ذلك خلفية تعصبية مقيتة لغير المسيحين.

وقد إستهدف البيان القضاء على مخلفات المرحلة الإستعمارية وإرساء مفاهيم إنسانية تقوم على المساواة وعدم التمييز على أساس عرقي أو ديني، وتقديم ضمانات للأوربيين مع كفالة للمواطنة الجزائرية دونما إعتبارات لاختلاف في العقيدة أو الجنس أو غيرها من دواعي التمييز بين البشر في حالات الحروب والنزاعات(24)، وهذا ما جاء واضحا في بيان الثورة داعيا الى التأكيد على المكانة المصونة لهذه الأقليات في ظل الدولة الجزائرية الموعودة(25)، وهذا ما أكدته جل الممارسات الميدانية للثوريين الجزائريين، والتي وردت بعض ملامحها على لسان شهود من أهلها، إذ ذكرت إحدى الصحف الأجنبية وهي مجلة" **ميدي – midi** "حول دعاية الحرب الدينية التي تدور رحاها في الجزائر، وذلك بتفنيد كل ما يروج من مغالطات تهدف الى تغطية حقيقة ما يحدث في الجزائر من نضال تحرري سلمي يهدف الى تحقيق المساواة بين مختلف الفئات المكونة للمجتمع الجزائري.

إذ ذكرت الصحيفة مقالا مطولا جاء وسمه تحت عنوان: "**حملة يسوع – la compagne de jesue**" ذكر فيه ما يأتي: «**إنه وبالبرغم من الإنفجارات المحلية للتعصب البدائي الذي يمكن أن تكون أسبابه مردودة الى الجهل أو الحقد اللامعقول، فإنه ليس هنالك من حرب مقدسة في مأساة الجزائر اليوم، فالآباء البيض يعرفون ذلك جيدا، لأنهم يرون أن مدارسهم لا تحرق، وهؤلاء الراهبات اللائي يصادفن جماعات الثوار والفلاحين كل يوم وحين، يرين التحية تقدم لهن باليد، مرفوقة بعبارة: "صباح الخير أيتها الأخت"، فليس الإسلام هو الذي يحارب المسيحية على أرض الجزائر**» (**26**)، وهذا ما يفند كل الإدعاءات التي طالما روجت لها الدعاية الإستعمارية، والسير على خطى المنظرين ممن أرادوا تحويل ثورة الجزائر الى صراع عقائدي بين الأديان، وهذا تعبئة غير المسلمين ضد هذه الثورة التي عرفت كيف تواجه هذه المشكلة بحكمة من خلال طمأنة غير المسلمين على مصيرهم في جزائر ما بعد الإستعمار.

4–قيمة الوحدة الوطنية:

والشيء الملفت للإنتباه أن قيم الإنسانية وردت متعددة في بيان الثورة التحريرية بين واضحة جلية ومضمرة خفية، إذ حمل هذا ميثاق الثورة قيما مختلفة على غرار الوحدة الوطنية منها، والتي وإن كان ظاهرها ذا بعد سياسي إلا أنها تعتبر أحد القيم الإنسانية التي استهدفتها الثورة عبر بيانها المرجعي، وقد جاء بيان أول نوفمبر

1954 داعيا الى الوحدة ولم الشمل، ومشيرا الى ضرورة تجاوز دواعي الفرقة والعداوة بين الجزائريين، والتي ظلت من وجهة نظر المحررين السبب الأول في عدم تحقيق الجدة المنتظرة في النضال الجزائري عبر فترات طويلة من ظهوره، وفي ذلك إشارة واضحة الى الصراعات البينية التي ظهرت بين الأحزاب السياسية الجزائرية المختلفة، سواء تحت تأثير سياسة الإستعمار أو طمعا في مصالح سياسية زادت الصراع السياسي الحاصل بين الجزائريين إلهاءا وتحويرا عن قضيته المركزية.

ومن ذلك فقد جاء البيان مبينا وداعيا في الوقت نفسه الى مكمن الخلل وعلاجه في آن واحد، وذلك بالدعوة الى الوحدة البينية على مستويات عدة، أما على المستوى الداخلي فقد جاء بيان الثورة داعيا الى تجاوز الخلافات البينية التي كرست التوجه العام للحركة الوطنية، وأصبحت السمة الغالبة التي تميز معظم تشكيلاته السياسية، ولذلك جاء البيان ليفك كل نزاع قائم وإتاحة الفرصة لنبذ الخلافات السابقة والانضمام للعمل الثوري، وذلك في قوله: «**إن الفرصة متاحة لجميع المواطنين الجزائريين، من جميع الطبقات الإجتماعية، ومن جميع الأحزاب السياسية ومختلف الحركات الوطنية، للإنضمام للكفاح التحرري دون أي إعتبار آخر**»(27).

ومن بين الملامح التي أظهرت أن الوحدة الوطنية مشروع وطني له مكانته الهامة في مشروع الثورة الجزائرية، ذلك التركيز الحاصل من المحررين على ضرورة توحيد الصفوف ولم الشمل، من أجل ضمان إنطلاقة موفقة تكفل الإنتصار المعنوي المنتظر لتحقيق الوثبة النفسية على العدو الإستعماري، ومؤكدا على تجاوز الصراعات السابقة التي كانت السبب الأساسي في كل نكساتنا السابقة، وهذا ما نبه اليه البيان بالقول: «**العمل على إعادة الحركة الوطنية الى نهجها الحقيقي، والقضاء على جميع مخلفات الفساد وروح الإصلاح التي كانت عاملا هاما في تخلفنا الحالي، والعمل على تجميع وتنظيم جميع الطاقات السليمة لدى الشعب الجزائري للقضاء على النظام الإستعماري**»(28).

ولا شك أن الملفت للإنتباه في المشروع الإنساني للثورة الجزائرية، أن مشروع الوحدة جاء مركزا على الوطنية منها بشكل كبير، وذلك بالعمل على جمع مختلف التيارات السياسية السابقة تحت مظلة جبهة التحرير الوطني، التي اعتبرت الحاضن الأول لجل التشكيلات الوطنية، مع الإشتراط على جميع الملتحقين الجدد للجبهة شروطا تنظيمية من أهمها، شرط "**الإلتزام** " الفردي لا الحزبي، وفي هذا التوجه التنظيمي المشترط على المنتسبين للجبهة الوطنية، دلالة واضحة على الإستفادة من الدروس السابقة للحركات السياسية أو الإتلاف السياسي الجزائري، الذي لم يعمر طويلا بسبب التناقضات الحاصلة داخل دواليبه ومكاتبه السياسية، ومرد ذلك الى التناقضات الفكرية والسياسية والإيديولوجية التي تبعث على الفرقة والتشتت أكثر منها مدعاة للتوحد، ومثال ذلك تجارب عدة نذكر منها: تجربة المؤتمر الإسلامي1936، تجربة جبهة أحباب

البيان والحرية 1944، تجربة جبهة الدفاع عن الحرية واحترامها1951 (29).

ولا شك أن مبدأ الوحدة الشعبية الذي دعت إليه الجبهة، والمقترن أساسا بالإلتزام الفردي تجاه كل الملتحقين بالجبهة الوطنية التي أقرها البيان كمشرع تنظيري للمجتمع الجزائري الموعود، وقد كان هذا المبدأ بمثابة الجدار العازل الذي تكسرت أمامه كل محاولات الاختراق الاستعمارية، التي استهدفت زعزعة أحقية الجبهة في كونها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الجزائري، من خلال إيجاد قوة ثالثة متواطئة مع الإدارة الإستعمارية، لتضرب شرعية الجبهة من خلال هذه الفئة المناوئة في تمثيل الجبهة للشعب بصفة أحادية وشرعية(30).

5-قيمة المعاملة الإنسانية للأسرى:

وبالإضافة الى كل القيم الإنسانية التي سعت الثورة التحريرية الى تحقيقها على أرض الواقع من خلال بيانها المرجعي، فإنها لم تهمل بالمقابل الجانب الحقوقي الإنساني، للطرف المقابل والذي ورد مظمرا في بيان الثورة التحريرية ولم تتم الإشارة إليه بصريح العبارة، ألا وهي فئة المدنيين الفرنسيين أو العسكريين من أولئك الأسرى الذين أصبحوا في منأى عن العمل العسكري المسلح، إذ نجد أن الثورة ورغم الممارسات الإستعمارية القائمة على إهدار كل حق إنساني للجزائريين طيلة الفترة الإستعمارية، وخاصة فيما تعلق بحقوق الجزائريين المسلمين أو الأهالي من الأنديجان على حد تعبير الفرنسيين(31)، فإن جنود جيش التحرير الوطني لم يقابلوا الإساءة بنظيرها، بل قابلوا هذه الشناعة الإستعمارية بأسلوب التسامح واللين في مختلف معاملاتهم.

وهو نفس الشيء الذي أقرته الإتفاقيات الدولية فيما يتعلق معاملة المدنيين والأسرى خلال الحرب على غرار إتفاقيات جنيف الصادرة في أوت 1949(32)، وهذا ما جعل الثورة الجزائرية مضربا للمثل ومدعاة للذهول من طرف الفرنسيين أنفسهم، ولا أدل على ذلك من تلك الإعترافات التي أقر بها بعض الأسرى الفرنسيين الذين وقعوا تحت حماية الثورة الجزائرية، وهو ماورد على لسان أحد الضباط الفرنسيين الذي صرح لصحيفة فرنسية قائلا:« **إننا نحب أن نعلن عن المعاملة الطيبة التي لقيناها من طرف الوطنيين الجزائريين، فطيلة إقامتنا لم نتعرض للشتم أو الإهانة، كما لم يستعمل ضدنا أي ضغط مادي أو معنوي، وكنا نتناول طعامنا قبل الجميع، وفي غالب الأحيان كنا نخجل من هؤلاء الرجال، الذين يعاملوننا بمنتهى الطيبة والروح الإنسانية، في الوقت الذي خربت ديارهم وقتلت عائلاتهم**».(**33**)

وفي نفس السياق، وتكريسا للمبادئ الإنسانية المستوحاة من الدين الإسلامي السمح، أقدم مجاهدوا الثورة التحريرية على إطلاق سراح أسير فرنسي يدعى"**روجي فال**"، وذلك إحتراما لشهر رمضان المبارك مرفقا إياه برسالة أكد من خلالها إلتزام الثورة التحريرية بمبادئ الإنسانية، وفي مايلي مقتطفات مما ورد في تلك الرسالة: «**أيها السادة ليكن في علمكم أننا مسلمون ،**

والإسلام هو من علمنا مبادئ الرحمة والسخاء...وامتثالا للتعاليم الربانية، فقد قررت قيادة الثورة التحريرية بإطلاق سراح أول أسير يقع في أيدينا، وذلك إحتراما لشهر رمضان المعظم»(34).

تلك إذا هي المبادئ الإنسانية التي كرستها الثورة في تعاملها مع الأسرى الفرنسيين، رغم شدة الوطأة الإستعمارية التي حلت بالمدنيين الجزائريين وعائلاتهم من جراء الإضطهاد الإستعماري الممنهج ضدهم إنتقاما منهم في الثورة وانتصاراتها المتتالية، غير أن الثورة التحريرية ظلت وفية لعهودها وملتزمة بمبادئ القانون الدولي ومثل الإنسانية، مما جعل منها ثورة إنسانية، لتكسب من خلال هذا النهج المسطر العديد من الأنصار والمؤيدين في أصقاع المعمورة جمعاء.

خاتمة:

يظهر من خلال الدراسة المستفيضة لموضوع القيم الإنسانية الواردة ضمن ثنايا بيان الثورة التحريرية، أن هذه القيم لم تكن سهلة الإستنتاج أو الإحاطة بمتغيراتها كما يعتقد عامة المتتبعين، بل إننا نجد الكثير منها قد ورد على شكل إشارات ضمنية وغير مصرح بها، لدواعي تباينت مظانها من تفسير الى آخر، أذ نجد أن هناك من ينسبها الى العجلة الحاصلة في صياغة البيان بغية الإسراع في تفجير العمل الثوري المسلح، وهذا ما لم يسمح بدراسة وإحاطة تامتين بكافة الجوانب الفكرية التي يمكن أن ترد ضمن ميثاق بحجم بيان أول نوفمبر 1954.

ورغم طابع العجلة المنسوب لبيان الثورة، الذي لازم وجوب التسريع في العمل المسلح، بالنظرا للممارسات الإستعمارية التي بلغت حدودا غير مألوفة، سيما بعد المجازر المرتكبة ضد المدنيين الجزائريين في 8 ماي 1945، إلا أن ذلك لم يمنع من أن يوظف محرروا البيان جملة غير مقيدة من القيم الإنسانية على غرار قيم: الحرية، السلم، حرية المعتقد، الوحدة الوطنية وغيرها من القيم الإنسانية التي وردت بشكل ضمني في بيان الثورة التحريرية

كما يتضح من خلال القراءة المتأنية للبيان المرجعي للثورة التحريرية، أن هذا الأخير قد حمل في طياته العديد من القيم الإنسانية، والتي كانت في مجملها مستمدة من تعاليم الدين الإسلامي ومصادره الأصيلة (القرآن والسنة)، والتي كانت عاملا فيصلا في نصرة القضية

الجزائرية بالدرجة الأولى، كما كانت أيضا محفزا دافعا لكسب الأنصار والأصدقاء من الأحرار والديمقراطيين في العالم ، هؤلاء الذين كانوا سندا معنويا وماديا بالمساهمة الجمة في تسريع عملية التدويل للقضية الجزائرية في المحافل الدولية من جهة، وإغاثتها بمتطلبات الحرب وضروراتها من جهة أخرى.

ومما تجدر الإشارة إليه أن قيم الإنسانية وبقدر حضورها الصريح و المضمر في بيان الثورة التحريرية، إلا أنها كانت أكثر واقعية في ممارسات هذه الثورة، خاصة فيما يتعلق بممارساتها الميدانية مع مختلف الفئات مدنية كانت أو عسكرية، وكذلك من خلال إحترامها للقوانين الدولية والإنسانية، التي تهدف الى أخلقة النزاعات الحربية وأنسنتها، وعليه فإن قيم الإنسانية التي ميزت الثورة الجزائرية كانت داعيا من دواعي الجزاء والثواب في الدين الإسلامي، الذي شكل العقيدة والمنطلق لكل ممارسة إنسانية للفرد الجزائري خاصة لما يتعلق الأمر بحدود الشرع والدين التي لا يمكن بحال من الأحوال تجاوزها أو إهمالها حتى ولو مع العدو الإستعماري.

الهوامش:

(1)- وزارة الإعلام والثقافة: **النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني 1954-1962**، الجزائر، 1979، ص08.

(2)-عمار بوحوش: **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962**، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1997، ص81.

(3)-الطاهر الغول: القيم الإنسانية والمبادئ السلمية في الثورة التحريرية بين الكتابة التاريخية والخطاب الشعري، **مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والإجتماعية**، السنة 05، العدد07، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي، الجزائر، جوان 2016، ص125.

(4)- محمد العربي ولد خليفة: **المحنة الكبرى**، دار الأمل، الجزائر، 2009، ص159.

(5)- محمد العربي ولد خليفة: **المصدر نفسه**، ص160.

(6)- وزارة الاعلام والثقافة : **المصدر السابق**، ص09.

(7)- سامية خامس: البعد الإنساني في الثورة الجزائرية، **الملتقى المغاربي الأبعاد الحضارية للثورة الجزائرية**، جامعة الجيلالي اليابس-سيدي بلعباس-، دار الغرب للنشر، الجزائر، 2003، ص43.

(8)-سورة الأنفال: **الآية رقم 61**.

(9)-وزارة الثقافة والإعلام: **المصدر السابق**، ص10.

(10)-محمد العربي الزبيري: **الثورة في عامها الأول**، ط1، دار البعث، الجزائر، 1984، ص83.

(11)-يوسف قاسمي: **مواثيق الثورة الجزائرية 1954-1962**، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الحاج لخضر-باتنة-، الجزائر، 2009، ص306.

(12)-سامية خامس: **المرجع السابق**، ص43.

(13)-أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي1954-1962**، ج10، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص79.

(14)-وزارة الإعلام والثقافة: **المصدر السابق**، ص10.

(15)-سرحان سليم: نظرات حول السفن الحربية الجزائرية في العهد العثماني(دراسة هستوريوغرافية)، **مجلة كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية**، العدد09، جويلية 2015، جامعة المسيلة، الجزائر، ص177.

(16)- وزارة الإعلام والثقافة: **المصدر السابق**، ص09.

(17)-فاطمة طاهري: تجليات البعد الديني في بيان أول نوفمبر1954- قراءة في البيان-، **مجلة كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية**، العدد 10، جوان 2016، جامعة المسيلة، الجزائر، ص72.

(18)- سورة البقرة: **الآية 256**.

(19)- سورة يونس: **الآية 99**.

(20)-وزارة الإعلام والثقافة: **المصدر السابق**، ص08.

(21)-فتح الدين بن أزواو: **إيديولوجية الثورة الجزائرية**، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، إ-د: محمد العربي الزبيري، 2000-2001، ص69.

(22)-وزارة الإعلام والثقافة: **المصدر السابق**، ص08.

(23)-عامر رخيلة: البعد الإنساني في الثورة الجزائرية، **مجلة المصادر**، العدد07، المركز الوطني للبحث في تاريخ الحركة الوطنية والثورة التحريرية، الجزائر، نوفمبر2002، ص 49.

(24)-أبو القاسم سعد الله: **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1996، ص48.

(25)- فاطمة طاهري: **المرجع السابق**، ص73.

(26)- عامر رخيلة: **المرجع السابق**، ص49.

(27)-سليمان الشيخ: **الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين**، تر: محمد حافظ الجمالي، دار القصبة، الجزائر، 2003، ص401.

(28)- محمد العربي الزبيري: **حزب جبهة التحرير الوطني من الشرف الى العلف- تشريح الازمة-**، ط1، دار الامة، الجزائر، 2014، ص290.

(29)-وزارة الإعلام والثقافة: **المصدر السابق**، ص09.

(30)-يوسف قاسمي: قراءة فكرية وسياسية في بيان أول نوفمبر1954، **الملتقى الدولي الثورة التحريرية- دراسة سياسية وقانونية-**، جامعة 8 ماي 1945 قالمة، الجزائر، ماي 2012، ص 24.

(31)-عامر رخيلة: **المرجع السابق**، ص 61.

(32)-أوليفي لوكور غرانميزون: **الإستعمار الإبادة- تأملات في الحرب والدولة الإستعمارية-**، تر: نورة بوزيدة، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2008، ص24.

(33)- عامر رخيلة: **المرجع السابق**، ص60.

(34)-عامر رخيلة: **المرجع نفسه**، ص61.

(35)- محمد الصالح الصديق: **الجانب الإنساني في الثورة التحريرية**، ط1، منشورات بغدادي، الجزائر، 2005، ص53.